

"ليس العاقل الذي يدفع بين الخير والشر ولكن العاقل الذي يختار الخير"



ما هي أسباب ضعف المسلمين اليوم؟ لماذا شتتوك أعراضهم وتعصب أرضهم ويُغزّون ولا يدفعون عن أنفسهم الظلم والذلة والهوان؟ لماذا يرقب بعضهم بعضاً وهم يموتون جوعاً وتقتيلاً وتنكيلاً من الكفار المجرمين ولا يحركون ساكنة؟ لماذا يشعرون بالعجز والضعف والتبعية للغرب أمام كل المصائب والأحوال التي تحلّ بهم؟

كانت أمة الإسلام مجتمعة تحت راية دينها، يحكمها خليفة واحد ينفرد فيها أحكام رجّها، تستجيب له وتطيع أوامره. قال جلّ وعلا في كتابه العزيز ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَإِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبِحُتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فالامر بالاعتصام بحبل الله جمِيعاً دعوة للأمة المسلمة في كل زمان ومكان... دعوة دائمة وقائمةً ومستمرةً، فعلى المسلمين الالتفاف حول كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وعليهم أن لا يتفرقوا لأن ذلك هو سبب الفشل والضعف والهوان ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاحْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هذا ما كان عليه المسلمون في ظلّ دولة الخلافة أقوىاء يهاجم الأعداء، لا يتجرّؤون عليهم ويخشون المساس بهم، فهم رعايا الدولة القوية التي ذاع صيتها وعرفت بين الأمم، ولا يتوانى خليفتها عن إعداد جيش حرب يحارب به كلّ من تسول له نفسه الاعتداء على فرد من رعاياها.

أكّد الله سبحانه وتعالى على ضرورة أن تكون الأمة الإسلامية أمة واحدة؛ ففي وحدتها قوّتها وفي التفافها حول دينه وشرعه ديمومتها وسيادتها وخيريتها. فما المقصود بـ"أمة" وما معنى أن يكون المسلمون أمة واحدة؟

يقول سبحانه وتعالى متحدثاً عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأتباعه الذين آمنوا بدين واحد وتوحدوا على عقيدة واحدة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فالامة بهذا المعنى هي جماعة من الناس آمنوا بالدين أو الفكر نفسه وبالتالي تكون مشاعرهم واحدة فنقول "هذه أمة رأسمالية" و"هذه أمة شيوعية" و"هذه أمة إسلامية"، ولا يمكن أن نقول "هذه أمة عربية" أو "أمة تركية"... لأنّها رغم أنها تخضع لنظام واحد إلا أنّ أفرادها يختلفون في قناعاتهم وأفكارهم.

يقول السعدي في تفسيره لآية ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونَ﴾: "﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: جماعتكم - يا عشر الرسل - جماعة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ متنققة على دين واحد، وربّكم واحد. ﴿فَاتَّقُونَ﴾ بامثال أوامري، واجتناب زواجي. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنّهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا تَبْعُدُونَ﴾ فالواجب من كلّ المتسبّين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمثّلوا هذا، ويعملوا به".

فحين نتحدّث عن المسلمين علينا أن نقول الأمة الإسلامية لأنّها جماعة توحدت على الإسلام فتوحدت أفكارها ومفاهيمها ومشاعرها وصارت أمة واحدة؛ صارت خير أمة أخرجت للناس تدعوهم إلى الخير أي إلى الإسلام فتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتنقذهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة. فآمة الإسلام هي أفضل الأمم التي بعثها الله لتكون أهلاً للسيادة والقيادة، تعمل على إزالة أسباب الفساد من الأرض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. روى البخاري عن أبي هريرة قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، أي خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا الإسلام".

لقد ميّز الله تعالى أمة الإسلام برابطة قوية لا تنفص ألا وهي رابطة العقيدة. هذه الرابطة التي جعلت منها أمة قوية تهابها الأمم وتتميز عنها بعلاقة الأخوة التي تسود بين أفرادها وترتبط بينهم فيتعاونون ويتكافون ويتعاطفون... هم جسد واحد إذا اشتكتى عضو منه تداعى له بالسهر والحمى. «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ، وَتَرَاحِمِهِمْ، وَتَعَااطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضُوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمْى»، صدق رسول الله ﷺ في وصفه وحديه عن أمته.

فرغم ما تعانيه أمة الإسلام من شتات وتفرقة وضعف وهوان إلا أن تداعى جسدها الواحد لشکوى عضو منه هنا أو هناك يتجلّى في دعاء المسلمين وبكائهم لمصاب إخوتهم في غزة وسوريا والسودان وتركستان وكشمير وغيرها من بلاد المسلمين... رغم قلة حيلتهم عن نصرتهم بسبب تلك الحدود وعمالة حكامهم الذين يحولون دون هبة الأمة وانتفاضتها من أجل فك القيود والتحرر من الاستعمار.

في حربه ضدّ الإسلام والمسلمين كان الغرب الكافر متيقناً من خسارته لمعاركه العسكرية ضدّ أمة الإسلام الواحدة التي تجمعها راية واحدة ودولة واحدة تحكم كلّ بلاد المسلمين فسعى إلى أن يطبق سياسة "فرق تسد"، فعمل على إسقاط الدولة بمعية خونة من الأمة. وحتى يحكم خنافق على رقاب المسلمين وحتى يتمكّن من عدوه العصبيّ قسم دولة الإسلام الواحدة إلى دواليات متعدّدة ووضع على رأس كلّ واحدة منها عميلاً له يحرس الحدود ويثبت القيد ويعمل على نشر مفاهيمه وثقافته الغربية بين المسلمين. وتفنّن هذا العدو في استضعفاف المسلمين في كلّ مكان ووظّف كلّ أسلحته المادية والفكريّة لتفتّيت وحدتهم وبثّ فيهم أفكاراً مسمومة كـ"القوميّة" وـ"الوطنيّة" لتأخذ مكان "الأمة" حتى يفكّك أوصال هذا الجسد الواحد.

فهذا هو الداء الذي حلّ بأمة الإسلام التي كان الأعداء يهابونها لقوّتها وعزّتها... كانت أمة متمسّكة بدينها تسير على هدي كتاب ربّها وسنة نبيّها وتنشر الخير بين الناس، فأصابها الدّلّ بعد أن حادت عن هذا الهدي واتّبعت الغرب وقوانينه التي فرضها عليها بالحديد والنار ونشر فيها مفاهيمه المسمومة بعد أن أسقط دولة الإسلام "الحصن الحصين".

فصارت الأمة ضعيفة مستضعفّة منتهكة يعاني أبناؤها الويالات والظلم والظلمات. قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فِلَلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. ولقد بين عمر بن الخطاب الطريق السوي للعزّة فقال: "نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام فإن ابتعينا العزة بغيره أذلّنا الله". فإن يكون المسلمون أمة واحدة تقود العالم وتنشر الخير في الناس واجب شرعاً عليهم تنفيذه، فالوحدة ليست خياراً بل هي أمر إلهي وقرآنٍ، وتركها خالفة لأوامر الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "إِنَّ الرَّحْمَمْ لَتَقْطَعُ، وَإِنَّ النِّعَمَةَ لَتَكْفُرَ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا فَارَبَ بَيْنَ الْقُلُوبِ لَمْ يُرْخِّخْهَا شَيْءٌ، ثُمَّ قَرَأَ هذه الآية: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفْلَقْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾". وقد نهى الله المسلمين عن التّفرقّة فيها هلاكهم وضياع أمّتهم ﴿وَلَا تَنَازِعُوْ فَتَفْسَلُوْ وَتَنْدَهَبَ رِيْحُكُمْ﴾.

فحّت تحقّق الأمة الإسلامية صفة الخيرية التي حبّها الله بها وتطيع ربّها وتصدقه لا بدّ أن تكون متحدة تسير على خطّ نبيّها ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، في تنفيذ حكم الله في الأرض. عليها أن تكون أمة واحدة تعبد ربّها الواحد وترفع رايتها الواحدة وتطيع إمامها الواحد الذي يحكمها بشرع الله العادل، وبذلك فقط تستعيد قوّتها وتحقّق نهضتها.

أن يكون المسلمون أمة واحدة هو ضرورة يفرضها الواقع الذي لم ولن يستقيم إلا في ظلّ الكيان القوي الذي مثل أمة الإسلام على مرّ العصور: دولة الخلافة التي لم ولن تخلو الحياة إلا في ظلّها، فيها فقط تنفذ أحكام الله العادلة وفيها يعيش أفرادها مطمئنين أعزاء.

هكذا كانت أمة الإسلام وهكذا تركها حببها المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ أمة قائدة سائدة، ويجب أن تعود كذلك... هي آخر الأمم في الدنيا وأولى الأمم في دخول الجنة، قال رسول الله ﷺ «نَحْنُ الْأَخْرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، ومنَّ اللهُ عَلَيْهَا بشفاعة الرسول ﷺ يوم القيمة. عن أبي جمدة قال: تَعَدَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَنَا أَبُو عَبْيَدَةَ بْنُ الْجَرَاحِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحَدٌ حَيْرٌ مِنَّا أَسْلَمْنَا مَعَكَ وَجَاهْدْنَا مَعَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يُؤْمِنُونَ بِي وَمَمْ يَرَوْنِي». يكفي الأمة الإسلامية شرفاً أنها أمة محمد ﷺ، أمة لا إله إلا الله، أمة يجب أن تُقدر وتحترم وتوفر عليها أن تحرص على تحقيق هذه الصفات فيها واسترجاعها حتى تعود كما كانت مؤهلة لقيادة العالم إلى الخير والسيادة عليه بما أعزها الله به "دين الإسلام".

فائية مكانة هذه التي حظيت بها يا أمة الإسلام؟ فكيف تتخلى عن هذا الشرف وعن هذه المرتبة الريفية؟

يقول الإمام الشافعي: "ليس العاقل الذي يدفع بين الخير والشّرّ، ولكن العاقل الذي يختار الخير"، ويقصد أنّ الشخص الحكيم هو الذي يختار الخير من البداية ولا يفرّط فيه، فالتفريط في الخير يجعله عرضة للضياع أو الندم لاحقاً.

وأمة الإسلام خير أمة عاقلة مفكرة متدبّرة في خلق الله، اهتدت إلى رحّها وآمنت به وبكتابه وأحكامه، فكيف تفرّط في هذا الخير الذي أمنها عليه رسوها لتبلغه بقية الأمم فتثير درّها وتحديها إلى طريق الحق وترجّها من الظلمات؟

علاوة على هذا كيف سلّقى الله - نحن أبناء هذه الأمة - وقد عاهدناه على أن لا نعبد سواه وأن لا يحكم الأرض ومن فيها إلا دينه وحكمه ﴿وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ طُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَّا سُنْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهَدْنَا أَنَّ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؟

يا أمة الإسلام: لقد شهدنا أن الله ربنا لا إله إلا هو وأنه خالقنا وبارئنا ومصوّرنا ورازقنا... أحيانا ويميتنا وسيحيينا لنلقاء فنفوز بجنته التي وعد بها عباده المؤمنين الصالحين المخلصين. فشهادتنا هذه لا بدّ من أن ننقدّها ونعمل عليها لنصدق الله فيصدقنا وعده.

حال المسلمين اليوم مؤلم ومحزن والطريق إلى تغييره بين وجلّي...

لا بدّ من عودة الأمة إلى مصدر عرّها ومجدها: كيان سياسي يوحّدّها ويحكمها بشرع رحّها وينشر أحكامه ويرفع راية دينه فتصدق بذلك خالقها... لا بدّ لها من التّوّحد تحت ظلّ دولة واحدة يحكمها إمام واحد يخشى الله ويصدقه فيعمل على نشر دينه وإعلاء كلامته حتى تكون هي العليا، وكلمة الكافرين هي السفلة، وحتى يكون الحكم لله وحده.. لا بدّ للأمة من دفع أبنائها لكسر الحدود وفكّ القيود والتحرّر من قبضة الاستعمار.

نُسأّل الله أن نكون ممّن يعمّل لتحقيق هذا العزّ ونُسأّله سبحانه أن نكون من العاملين لإعادة دولة الخلافة الرّاشدة الثانية التي ستعيد للأمة مجدها ومكانتها فستعيد خيريتها التي ميّزتها ورفعتها عن باقي الأمم. اللّهم وحدّ بين أفرادها وأزلّ عنها كلّ ما يسبّب فرقتها وردها إلى دينك الذي رضيت رداً جميلاً.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

زينة الصامت